Mental Cognition in Descartes‘ Philosophy

Ahmad kaikakie *

(Received 15 / 4 / 2023. Accepted 20 / 6 / 2023)

□ ABSTRACT □

This research deals with the relation of the mind in producing knowledge with both truth and Cartesian doubt . In this research, we talked in details about the position of the mind in Descartes‘ philosophy in general, and it’s association with thought processes, mainly Cartesian doubt which is based on examining the cognitive phenomena and refusing what the senses produce, which means that Descartes had rejected the sensory knowledge for the sake of mental knowledge, as the results that the mind approaches are real and could make the thought far from doubt and close to ultimate mental truths.

Keywords : mind, truth, doubt.

Copyright **:**Tishreen University journal-Syria, The authors retain the copyright under a CC BY-NC-SA 04

* **Master. Department of philosophy, faculty of arts humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria** ahmad.kaikakie@tishreen.edu

الإدراك العقلي في فلسفة ديكارت

أحمد كعيكاتي*

(تاريخ الإيداع 15 / 4 / 2023. قبل للنشر في 20 / 6 / 2023)

□ ملخّص □

يتناول هذا البحث علاقة العقل في إنتاج المعرفة بكل من الحقيقة والشك الديكارتي وقد فصلنا في هذا البحث موقع العقل بشكل عام في فلسفة ديكارت، وارتباطه بعمليات الفكر وعلى رأسها الشك الديكارتي الذي يقوم على تفحص الظواهر المعرفية وعدم القبول بما تنتجه الحواس مما يعني أن ديكارت قد رفض المعرفة الحسية لصالح المعرفة العقلية، إذ إن النتائج التي يتوصل إليها العقل هي نتائج حقيقية ويمكن من خلالها جعل الفكر بعيداً عن الشك وقريبا من الحقائق العقلية المطلقة.

الكلمات المفتاحية: العقل، الحقيقة ، الشك.

حقوق النشر : مجلة جامعة تشرين- سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

* **ماجستير – الفلسفة- قسم الفلسفة، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية** ahmad.kaikakie@tishreen.edu

مقدمة:

سوف نتناول في هذا البحث طبيعة الإدراك بشكل عام، ثم علاقة هذا الادراك بالمنهج عند ديكارت وذلك لضرورة ايضاح البحث المنهجي عنده، ثم كيف نظر ديكارت إلى الإدراك الحسي وما موقعه في هذه النظرية وما أهميته في الكشف عن معضلات المعرفة والمنهج عند ديكارت خصوصاً وإننا في هذا البحث سنبحث أيضاً في طبيعة الحواس وطبيعة المعرفة الديكارتية، مما سيقودنا إلى الحديث عن الإدراك العقلي ودوره في تحصيل الحقيقة عند ديكارت، لذلك سنبحث عن علاقة العقل بالحقيقة متطرقين إلى مفهوم الشك بهدف توضيح معنى الإدراك العقلي عند ديكارت وأهميته في توضيح الاشكالات المعرفية التي تواجه البحث عن الحقيقة عنده

أهمية البحث وأهدافه:

أهمية البحث:

لعل اهمية هذا البحث تأتي من كونه يناقش مشكلة المعرفة العقلية في سياق العلاقة بين الحواس والعقل وقيمة الحقيقة، وهو ما يجعلنا نقف على طبيعة المعرفة العقلية عند ديكارت.

أهداف البحث:

لقد هدف هذا البحث من بين ما هدف إليه إلى الكشف عن طبيعة مفهوم الإدراك العقلي وكيف استطاع ديكارت أن يقدم هذا المفهوم في سياق البحث عن الحقيقة وإمكانية الوصول إلى معرفة غير قابلة للشك طالما أن المعرفة الحسية تبقى معرفة شكية وغير قابلة للبرهان

منهجية البحث:

استعنا في هذا البحث بمنهج النقدي التاريخي طالما أننا نخوض في نقاش يتناول المعرفة التاريخية وظهورها عبر فلسفة ديكارت التي قدمت نقلة نوعية في تحقيق الهدف الذي تسعى إليه المعارف الإنسانية بوصفها معارف قابلة للنقد التاريخي

النتائج والمناقشة:

1. العقل والحقيقة.

إن الحقيقة عند فلاسفة العقل تتميز بأنها واحدة لدى جميع الناس ولا تعتمد على المتغيرات الحسية كما رأينا عندما ناقشنا موضوع الإدراك الحسي. كذلك يرى فلاسفة العقل إن الحقيقة كلية ومطلقة؛ أي أنها غير محكومة بزمان أو مكان، فهي حقيقة صادقة في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل. فالحقيقة تبقى خلف التغيرات التي تحكم المظاهر، أي أن ماهية الأشياء تبقى ثابتة، والماهية هنا هي ماهية عقلية توصل إليها الإدراك العقلي واستطاع بالتالي أن يصل إلى قوانين ثابتة عبر الزمان والمكان، وكما يرى باحثون فإن مبدأ الحقيقة الناجمة عن الإدراك العقلي مرتبط بالماهية الثابتة، وما " قد يتبدل أو يتغير فيها، هي الأعراض فقط أو الصفات غير الأساسية أو الجوهرية، فبالرغم من كل ما

يطرأ على الإنسان من تبدل أو تغير في شكله، يبقى إنساناً بالنسبة لنا، ويبقى مخلوقاً أو كائناً، يتصف بالصفات الأساسية أو الجوهرية(الحيوانية والتعقل) التي تميزه من غيره من الحيوانات أو سائر الموجودات"[1].

وقد نظر ديكارت إلى الإدراك العقلي بأنه هو الإدراك العقلاني الذي يسمح بالمعرفة الحقيقية، فعلاوة على أن ديكارت قد شك في المعرفة الآتية من الحواس والإدراك الحسي المتعلق بالحواس الظاهرة. كذلك فإن ديكارت قد شك في المعرفة التي تأتي من الحواس الباطنة التي لا تبدو بالنسبة له معرفة مقنعة، وهذا ما يعبر عنه في كتابه تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، إذ يقول:" كثيراً ما لاحظت أن الأبراج التي تبدو مستديرة عن بعد تبدو مربعة إذا نظرت إليها عند اقترابي منها، وأن التماثيل الضخمة المرفوعة على قمم هذه الأبراج تبدو صغيرة حين أنظر إليها من أسفل تلك الأبراج، وقد تبينت في حالات أخرى كثيرة جداً، أخطاء في الحكم، أساسها الحواس الظاهرة وليس الخطأ بقاصر على الأحكام المبنية على الحواس الظاهرة وحدها بل يجاوزها إلى احكام المبنية على الحواس الباطنة(الحس المشترك، الخيال، الحافظة، الذاكرة، الخ.....) أيضاً(.....) ومن الحكمة ألا نثق البتة في من يخدعنا ولو مرة واحدة"[2].

لقد وقفت الفلسفة الديكارتية من خلال الإدراك العقلي إلى اعتبار اليقين والحقيقة كمبدأ أول للفلسفة، وعندما نعود إلى مفهوم الوجود عند ديكارت، فإنه يمثل الوجود العقلي الذي هو وجود مرتبط بالتفكير كما رأينا من خلال الكوجيتو. ولكن هنا من خلال الإدراك العقلي الذي يجعل الفرد يتأكد من وجوده، فهنا يكون العقل هو مصدر هذا الوجود، إذ إن ديكارت عندما يربط الوجود بالإدراك العقلي، فإنه بذلك يتحدث عن التصورات الواضحة التي تمكن الإنسان من الوصول إلى الحقيقة المطلقة البعيدة عن التغير والتبدل، وهذا ما يعبر عنه ديكارت بقوله" أنا أفكر إذن أنا موجود كانت من الثبات والوثاقة(اليقين) بحيث لا يستطيع اللا أدريون زعزعتها بكل ما في فروضهم من شطط بالغ. حكمت أني أستطيع مطمئناً أن آخذها مبدأ أول للفلسفة التي أتحراها.... لاحظت أنه لا شيء في هذه القضية: أنا أفكر إذن فأنا موجود، يجعلني أثق من أني أقول الحق، إلا كوني أرى بكثير من الجلاء لأجل التفكير، فالوجود واجب: فحكمت بأنني أستطيع أن اتخذ قاعدة عامة، أن الأشياء التي نتصورها تصوراً قوي الوضوح والتميز، هي جميعاً حقيقة..... "[3].

والإدراك العقلي بالنسبة إلى ديكارت ليس فقط هو من يقوم بالاستدلال، وبالتالي الانتقال من شيء معلول إلى شيء مجهول، بل إنه هو الذي يعبر عن جميع العمليات العقلية. وهذا يعني أن التفكير عند ديكارت هو جملة هذه العمليات التي تتقاطع فيما بينها من أجل إظهار الوعي أو الوصول إلى الوعي. مما يعني أن الإدراك العقلي يمتلك كل هذه القدرات النفسية والحسية والإدراكية والتصورية بما فيها عملية التذكر والرغبة والاعتقاد، بهذا المعنى يكون ديكارت قد أعطى للإدراك العقلي سلطة مطلقة على جميع العمليات الأخرى، فبدون هذا الإدراك العقلي فإن كل تلك العمليات لا تؤدي إلى تأكيد الوعي وانطلاقته في عالم المعرفة العقلية الديكارتية كما لا يمكن أن نتأكد من الوجود إلا من خلال التفكير العقلي، أي أن يكون الإنسان شيئاً فشيئاً مفكراً حيث يقول ديكارت:" أنا موجود، هذا أمر ثابت، لكن كم من الوقت؟ ما دمت أفكر. إذا انقطعت عن التفكير، انقطعت ربما عن الوجود انقطاع خالصاً، أسلم الآن جبراً بشيء صحيح، أنا شيء يفكر... أي أنا روح أو إدراك أو عقل، وأنا والحالة هذه شيء صحيح وموجود حقاً، لكن أي شيء أنا

---

[1] – **مهدي فضل الله، فلسفة ديكارت ومنهجه، ، دراسة تحليلية ونقدية، دار الطليعة، بيروت، ط3، 1996. ص44**

[2] – **رينيه ديكارت. تأملات ميتافيزيقية... ت: كمال الحاج، منشورات دويرات، بيروت، ط4، 1988،التأمل 1,3، 6**

[3] – **رينيه ديكارت. مقال في المنهج،ت/ محمود محمد الخضيري، دار الكاتب العربي لطباعة والنشر، القاهرة، 1968، القسم الرابع.**

هو؟ أنا شيء يفكر. وما هو الشيء الذي يفكر؟ هو شيء يشك ويدرك ويتذهن ويثبت وينفي ويريد ويرفض ويتخيل ويحس "[4].

وجدير بالذكر أن الفلسفة الديكارتية هي فلسفة واقعية، كما أن فلسفة ديكارت قد أعطت للفلسفة بعداً جديداً، من حيث إن الوقوف على مفهوم المعرفة والحقيقة المطلقة قد جعل من هذه المعرفة معرفة كونية، وهذا ما قدمه ديكارت في تاريخ الفلسفة كما أنه استطاع من خلال مفهوم الحقيقة المطلقة أن يجعل من مشروعه الفلسفي مشروعاً يفوق النظرة النسبية للموضوعات المعرفية. وهذا ما يراه فوكو عندما يتحدث عن ديكارت فيقول:" فلديكارت نرجع خصوصية المشروع الفلسفي الذي يراهن على خطاب جديد للفلسفة يجعل من التفلسف وعياً بمهام جديدة للفلسفة ضمن تحديدية جديدة للسؤال المعرفي بالنسبة للفيلسوف إذ الفلسفة لا تتحدد كمعرفة بموضوع مخصوص بل هي كونية المعرفة أو المعرفة الكونية دون أن تكون الإحالة المقصودة بمعنى الكونية إلى واقع طوبوغرافي أو كوسمولوجي بل في مدلول عالمي أو كلي كما لا تدرك من الكونية فعل المطلقية بل تجاوز المخصوص نحو العام"[5].

2. الشك الديكارتي

بالطبع لا يمكن اغفال ما قام به منهج الشك الديكارتي في سياق الوصول إلى الحقيقة المطلقة أو الحقيقة الكونية كما تتحدث والتي تتصف بأنها أيضاً حقيقة واقعية، لأن ديكارت حاول ان يستقرء العالم وأن يشك في كل ما يلمسه أو يراه من ظواهر. وكذلك حاول أن يخرج من مذاهب اللا أدرية الذين يشكون لمجرد الشك ذلك ان ديكارت قد قرأ الواقع قراءة عقلية مستندة إلى الإدراك العقلي، مما منحه قدرة على هذه المعرفة العقلية الهادفة إلى الوصول إلى عمق الظواهر والنفاذ إلى قلبها وهو يصف هذه التجربة؛ فيقول" وفي السنوات التسع التالية كلها لم أصنع شيئاً إلا الطواف هنا وهناك في العالم، مجتهداً أن أكون فيه متفرجاً لا ممثلاً، في كل المهازل التي تمثل فيه، ولما كنت أخص تفكيري في كل شيء.... يمكن أن (يكون) موضعا للشك، ويكون سبباً في خطئنا، فإنني انتزعت... من عقلي كل الأخطاء التي استطاعت أن تتسرب إليه من قبل، وما كنت في ذلك مقلداً اللا أدرية الذين لا يشكون إلا لكي يشكوا، ويتكلفون أن يظلوا دائماً حيارى، فإنني على عكس ذلك، كان كل مقصدي لا يرمي إلا إلى اليقين، وإلى أن أدع الأرض الرخوة والرمل، لكي أجد الصخر أو الصلصال"[6].

وفي هذا الإطار نجد أن ديكارت قد سعى إلى تأكيد قدرة المبادئ العقلية على خلق معرفة جديدة يكون منطلقها الإدراك العقلي وغايتها الوصول إلى قواعد علمية ثابتة في العلوم كافة. ومن الواضح أن ديكارت في تجربته العقلية يصل إلى هذا الحد من تقرير قدرة الإدراك العقلي على تفحص الوجود والظواهر العينية، وبالتالي الوصول إلى التأمل العقلي مما جعله يصف هذه المسألة عندما يتحدث عن تجربته في الخروج من الريبة والشك إلى وضع القواعد العقلية والعلمية فنجده يقول:" وغمرني البارحة تأمل بفيض من الشكوك لم يعد باستطاعتي أن أمحوها من نفسي ولا أن أجد مع ذلك سبيلاً إلى حلها، كأنني سقطت فجأة في ماء عميق للغاية، فهالني الأمر كثيراً حتى أنني لم أقدر على تثبيت قدمي في القاع ولا على العوم فوق سطح الماء، ورغم هذا سأبذل جهدي للمضي في الطريق الذي سلكته مبتعداً عن كل ما قد

[4] – رينيه ديكارت. تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، التأمل الثاني.

[5] – محسن صخري. فوكو قارئا لديكارت، مركز الانماء الحضاري، حلب، ط1، 1997، ص37.

[6] – رينيه ديكارت. المقال في المنهج، القسم الثالث.

يكون لدي أدنى شك فيه، كما لو كنت على يقين من أنه باطل جدا... وذلك حتى اهتدي إلى شيء ثابت. فإذا لم يتيسر لي ذلك، علمت علماً أكيداً... أنه لا يوجد في العالم شيء ثابت"[7].

وطالما أن ديكارت قد وصل إلى هذه الحال، فإننا نجد أنه قد رفض كل معرفة لا تنطوي على طبيعة الواقع وتجربته. ولهذا نجد أن ديكارت رفض المنطق الصوري مستبدلاً به منطق الكوجيتو. ولكن الإدراك العقلي يبقى أيضاً معرضا للنقد وللمناقشة الفلسفية على الأسس العقلية. إذ إن الكوجيتو الديكارتي يتحدث عن الوجود الذهني والتصور الذهني، ومع ذلك فهو يحاول أن يكون قريباً من الواقع. إذ إن ديكارت يبحث عن الوجود الحقيقي للأشياء ولا يتحدث عن الوجود المفترض، ولهذا الأمر تمتلك الديكارتية من خلال الإدراك العقلي مسوغها التاريخي والإنساني والاجتماعي. وهذا ما نلاحظه عندما نجد أن الإدراك العقلي لا يتعارض مع الوقائع المعرفة، وهو ما أشار إليه براندتدرسل عندما قال:" ومن الشائع في الفلسفة... أنه يوجد فرضان متضادان قابلان لأن يفسرا جميع الوقائع. فيمكن مثلاً أن تكون الحياة حلماً طويلاً وأن يكون للعالم الخارجي من الحقيقة ما للأشياء التي نراها في الحلم فقط. ولكن بالرغم من أن هذه النظرية لا تبدو متعارضة مع الوقائع المعروفة فليس هناك من سبب يدعونا لتفضيلها على نظرية الإدراك العادي التي تذهب إلى أن الأشخاص الآخرين والأشياء الأخرى توجد حقيقة وهكذا....."[8].

3. الإدراك العقلي وإشكالات المعرفة.

استطاع ديكارت من خلال نظريته حول الإدراك العقلي أن يخلص الفلسفة من الإشكالات الكبرى المتعلقة بعلاقة المعرفة بالوجود. فلم تعد المعرفة مرتبطة بهذا النوع من الإدراك أو غيره بل لقد أصبحت المعرفة كونية وهو ما جعل ديكارت يبدو مؤسساً للفلسفة العقلية الحديثة بالمعنى العريض للكلمة.

إذ إن الإدراك العقلي سمح للسؤال الفلسفي أن ينتقل من القول ما هو العالم إلى السؤال ما هي طبيعة هذا العالم؟ وما مدى ارتباط هذه الطبيعة بالطابع التعقلي الذي ينتجه الإدراك العقلي؟ ومن هنا نجد ان ديكارت قد مثل النموذج العقلي عندما انطلق من الإدراك العقلي نحو مناقشة طبيعة المعرفة. وأكثر من ذلك نحو توسيع المعرفة من معناها الضيق المحصور بالحسيات إلى معناها الكوني، بحيث أصبحت المعرفة متعددة الموضوعات، وهذا ما أشار إليه فوكو عندما قال:" لقد كان ديكارت وفق نموذج النظر الهيغلي في تأويل لفوكو محرراً للفلسفة بما هو أولاً تحرر من الأشكال إلى الإشكاليات أو من السؤال المخصوص إلى الأسئلة كل ذلك يملي فكرة أن الفلسفة تتحول مع ديكارت إلى معرفة متحررة من التضييق المعرفي، وعندها يدرك المقصد الديكارتي في جعل الفلسفة معرفة كونية لا تمتلك من موضوع بل تمتلك مواضيعها"[9].

وبهذا الشأن، فإن الإدراك العقلي المستند إلى توسيع طبيعة المعرفة قد جعل من الفلسفة الديكارتية تخوض في القضايا الكوسمولوجية؛ أي الكونية وفي القضايا التيولوجية؛ أي اللاهوتية وجعل هذه الموضوعات قابلة للإدراك العقلي؛ فيصبح بمقدور الفلسفة أن تتأمل في الذات وأن يكون للإدراك العقلي دوراً هاماً في طبيعة هذا التأمل، بل إن الفلسفة الديكارتية المنطلقة من الإدراك العقلي جعلت التفلسف حيال الذات جزءاً من الموضوعات التي تناقشها الفلسفة انطلاقاً من قدرة الإدراك العقلي على توسيع نطاق المعرفة، وفي هذا الشأن فإن الخصوصية الفلسفية للإدراك العقلي كما يرى فوكو

---

[7] – رينيه ديكارت. تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، التأمل الثاني.

[8] – برتراند رسل. مشاكل الفلسفة، ت: محمد عماد الدين وعطيه هنا، الطبعة الأولى، 1947، ص105

[9] – محسن صخري. فوكو قارئا لديكارت، مرجع سابق، ص37.

تتجسد أيضاً ضمن" إحداثية مميزة حينما يصبح الإنشغال الفلسفي تأملاً في الذاتية أو حين تكون الفلسفة تفلسف في الذات أو الذات بما هي مرجع للتأمل الفكري للفيلسوف، خاصة حين يقع التذكير بأن الموضوع الفلسفي قبل ديكارت نسياناً للذات أو تعويض الذات بما هي موضوع فلسفي انثروبولوجي بموضوعات عقلانية(النفس) أو كوسمولوجية(العالم) أو ثيولوجية الإله"[10].

وقد سار ديكارت نحو وضع منهج يساعد على جعل الإدراك العقلي إدراكاً منضبطاً بما يسمح لهذا الإدراك أن يميز الباطل من الحق، وأن يسمح بالتالي إلى أن تبلغ النفس معرفة حقيقية بكل الأشياء التي تحيط بها. ولأن الأمر كذلك فإن الإدراك العقلي لابد أن يتم مع مراعاة قواعد منهجية تمكن ديكارت من التأسيس، لهذا الإدراك ضمن درجات المعرفة الصحيحة والتي تسهم بشكل أو بآخر في جعل المعرفة العقلية بوصفها المعرفة الأكثر دقة بطبيعة العالم. ولهذا فإن ديكارت قد وضع قواعد أربعة يعتبرها قواعد سهلة تسهم إلى حد بعيد في تميز المعارف عن بعضها البعض وفي إمكانية جعل هذه المعارف معارف يقينية ومطلقة.

وبالمناسبة فإن هذه القواعد لا يمكن تحصيلها إلا عن طريق الإدراك العقلي، لأننا نجد أن هذه القواعد إنما تعبر عن طريقة انتقال عقلية نحو معرفة العالم بما يمكن أن يجعل مثل هذه المعرفة معرفة مطلقة وكونية، أي أنها تسري في جميع أوصال الكون، وهنا لا بد أن نقف عند القاعدة الأولى من قواعد المنهج وهي:

أولاً: قاعدة اليقين أو البداهة، ومعناها ألا نثق" في شيء ما أو نقبل به على أنه صواب، إلا بعد أن نعمل ذهننا في كل الأفكار التي نمتلكها، سواء كان امتلاكنا لها حاصلاً عن طريق الوراثة أو الاكتساب، حتى لا يبقى في عقولنا إلا الأفكار التي يسلم بها كل ذي عقل سليم، ولا يمكن أن يشك بها أو يرفضها والوسيلة إلى ذلك ممكنة، وهي تكون عن طريق مراعاة ثلاثة مبادئ:

1. تجنب التسرع في الأحكام.
2. عدم الميل مع الهوى.
3. عدم قبول شيء غير بديهي"[11].

وهذه القاعدة توضح بشك بسيط ومباشر ما يتوجب على العقل أن يتخذه من خطوات في سياق تحقيق المعرفة العقلية المطلقة. من حيث إننا نجد أن أي إدراك عقلي لأحكام لابد أن يكون واضحاً وبعيداً عن التشويش والأوهام التي مصدرها التسرع في الأحكام. فلا بد إذن من التأمل الهادي والبسيط والمتوازن في هذا السياق، أي في سياق إمكانية أن يكون الإدراك العقلي إدراكاً خالصاً بعيداً عن التشويش وبعيداً عن التشويش وبعيداً عن الأوهام. فلا بد إذن أن يكون أعمال الفكر والتبصر والتأمل شروطاً أساسية في أي عملية لإنتاج حكم معرفي أو إطلاق هذا الحكم على هذه الموضوعات هنا وهناك، وتجنب التسرع هو من مبادئ التي لابد من مراعاتها حيث نجد أن هذا المبدأ يبعدنا عن الأحكام العشوائية أو المتغيرة أو التي تنطوي على العيوب. ويضيف ديكارت هذا المبدأ فيقول:" تجنب التسرع في الأحكام لأن التسرع في اطلاق الأحكام، من عيوب الإنسان، الذي يميل بطبعه، على حد قول فرنسيس بيكون، في

[10] – **محسن صخري. فوكو قارئا لديكارت، مرجع سابق، ص37.**

[11] – **رينيه ديكارت. المقال في المنهج، القسم الثاني.**

نظريته، الأوهام الأربعة، إلى تجنب الجهد، وإلى إصدار الأحكام جزافاً، ولذا لابد من إعمال الفكر أو النظر قبل إلقاء أو إصدار الأحكام"[12]

وإذا كان لابد لنا أن نتجنب التسرع في إطلاق الأحكام، فإن ذلك يعني أن ديكارت يحاول أن يقول بصريح العبارة إن الإدراك العقلي يجب أن يكون بعيداً عم العواطف والآراء الشخصية، لأن الارتهان إلى هذه العواطف وهذه الآراء الشخصية يجعل من الصعب الوصول إلى معرفة عقلية صحيحة. وهنا أيضاً نجد أن ديكارت يتحدث عن المبدأ الثاني الذي يتعلق بالقاعدة الأولى والذي يسميه" عدم الميل مع الهوى، لأن عكس ذلك يبعد الباحث عن النهج العلمي الصحيح، الذي ينبغي اتباعه في البحث، وهذا المبدأ يتمثل في التأييد العاطفي العشوائي لآراء أو أفكارشخص ما(قريب. فيلسوف. أيب. سياسي. الخ....) دون بحث وتمحيص "[13].

كذلك يتعارض الإدراك العقلي مع الاضطرابات الذهنية، حيث نجد أن هذا الإدراك العقلي هو بشكل من الأشكال يجب أن يكون بعيداً عن الغموض والاضطراب، ويجب أن يقترب أكثر فأكثر من الوضوح وغير ذلك، فإن الإدراك العقلي يكون إدراكاً مشوشاً وغير قادر على الوصول إلى عمق الظاهرة المراد معرفتها، وهذا هو بالضبط ما يشير إليه في عملية وصف موقف ديكارت من كل إدراك خارج الإدراك العقلي، فالاضطرابات الذهنية وكذلك الأفكار المشوشة كلها تعرقل النشاط الذهني. وبالتالي تفقد المعرفة العقلية وتسيء إلى مفهوم الإدراك العقلي، لهذا يصل ديكارت إلى المبدأ الثالث في القاعدة الأولى من منهجه والتي تقول:" عدم قبول شيء غير بديهي لأن عكس ذلك، يورث الاضطراب في الذهن، نتيجة غموض ما فيه من أفكار، وهذا إذن، يقتضي ابتداء عدم قبول أي شيء، سواء كان ذلك فكرة أو رأيا أو معتقداً، إلا إذا توفر فيه شرطاً البداهة، وهما كما سبق ورأينا الوضوح التام والتميز المطلق"[14].

ولعل اهتمام ديكارت بضبط طبيعة الإدراك العقلي، وضرورة أن نسير ضمن سياق واضح يعتمد على الوضوح والتمييز المنطقي لعلاقات المعرفة والواقع. كان لابد له أن يقوده إلى البحث عن قاعدة جديدة تجعل الإدراك العقلي أشد تماسكاً وصلابة، كما تمكنه من تقديم الحكم العقلي المعرفي المناسبة. بحيث يمكن أن تصبح المشكلة التي نناقشها حيال موضوع ما مشكلة واضحة المعالم، ولهذا نجد أن ديكارت يلجأ إلى قاعدة التحليل ومعناها تقسيم" المعضلة المستعصية على الفهم والحل، إلى عناصرها المكونة لها، أو إلى أكبر قدر ممكن من العناصر أو الأجزاء التي تنحل إليها، وبقدر ما تدعو الحاجة إلى ذلك"[15].

ولا شك أن هذه القاعدة تسير بنا من المراحل المعقدة التي يمكنها أن تجعل المشكلة فيها الكثير من التعقيد وغير ممكن حلها على نحو مباشر. فلا بد هنا أن يتميز الإدراك العقلي عن الحسي يحمله من أنواع التفكير المرتبطة بتحليل المشكلة بما يساعد في هذه المشكلة من خلال تقسيمها إلى عناصرها البسيطة، وفهم كل عنصر على حدى وهو ما يريد أن يوضحه ديكارت بالقول" إذن فإن هذه القاعدة، تفترض ابتداء، مشكلة عويصة أو معقدة، لأن ما هو بديهي أو واضح متميز، ليس بحاجة إلى تحليل، لأن يكون مقبولاً دون شك أو تساؤل. والتحليل يجب أن يؤدي في نهاية المطاف

[12] – رينيه ديكارت. المقال في المنهج، القسم الثاني.

[13] – المصدر نفسه.

[14] – المصدر نفسه.

[15] – المصدر نفسه.

إلى فهم المشكلة، ومعرفة الحل المناسب لها، لأن التحليل ما هو إلا كناية عن تجزئة المشكلة إلى عناصرها البسيطة المكونة لها، ومعرفتها معرفة مباشرة، سواء عن طريق البداهة أو الاستنباط المرتكز إلى الأفكار البديهية فيها"[16].

ولعل أهم خصائص الإدراك العقلي أنه قادر على تحليل المشكلة إلى عناصرها الأساسية، لأن ديكارت يسعى إلى جعل التحليل العقلي لعناصر المشكلة منهجاً رياضياً. وهذا هو عمق الإدراك العقلي لأن الرياضيات هي الفهم الوحيد الذي يتمتع بالبداهة والبساطة والدقة. مما يعني أننا في كل مرة حاولنا أن نحلل فيها المعرفة العقلية والإدراك العقلي نجده انه مرتبط أشد الارتباط بالمعرفة الرياضية أو الإدراك العقلي. ولهذا نجد أن ديكارت بعد أن يحلل المشكلة إلى عناصرها الأساسية فإنه يقوم بالبحث عن الخطر الأساسي الذي تسير عليه هذه المعرفة، فإنه يقوم بالبحث عن الخطر الأساسي الذي تسير عليه هذه المعرفة من حيث إن التحليل وحده لا يكفي لفهم العناصر وكيفية تقاطعها من قلب الظاهرة مما يمهد أمام ديكارت لطرح القاعدة الثالثة من قواعد المنهج، وهي قاعدة التأليف والتركيب والذي" ينحصر المنهج بأجمعه في أن نرتب وننظم الأشياء التي ينبغي توجيه العقل إليها لاستكشاف بعض الحقائق. ونحن نتبع هذا المنهج خطوة خطوة، إذا حولنا بالتدريج القضايا الغامضة المبهمة إلى قضايا أبسط، وإذا بدأنا من الإدراك البديهي بسط الأشياء كلها، فإننا نجتهد أن نرقى بنفس الدرجات إلى معرفة سائر الأشياء"[17].

وبعد هذه المرحلة تأتي قاعدة الاستقراء التام أو الاحصاء الشامل، وتشير هذه القاعدة إلى مسألة كل مسألة بإحصاءات شاملة، سواء في الفحص على الحدود الوسطى أو في استعراض عناصر المسألة، بحيث يتحقق من أنه لم يغفل شيئاً. وبالتالي هذه القاعدة تمكن من تحقيق القاعدة السابقة، وبالتالي فهي ترمي إلى استيعاب كل ما يتصل بمسألة معينة، وترتيب العناصر التي توصل إليها، وهذا ما يشير إليه ديكارت بالقول:" تعني هذه القاعدة بوجوب عدم إغفال دراسة أي عنصر من عناصر المشكلة، موضوع البحث، فقد تتعدد الحدود(العناصر، الأجزاء) في المشكلة، وإهمال دراسة أي منها، ويعقد الأمر، بحيث يصبح من المتعذر إدراك العلاقات القائمة فيما بينها إدراكاً بديهياً، واستطراداً، إدراك العلاقة القائمة بين الحد الأول والحد الأخير، الذي يؤلف النتيجة"[18].

ونلاحظ هنا أن مضمون هذه القاعدة يشرح عملية المراجعة الشاملة لمختلف الأجزاء. وذلك من أجل التأكد من أنه لم يغفل أي خطوة أو عنصر، ومن هنا يمكن التأكيد على أن ديكارت قد تحدث بعكس المناطقة الذين اصروا على فكرة الإحصاء الناقص والقائم على فكرة أساسية، ترى " أن الذي يقوم على أغفال عن قصد بعض الأجزاء لكن مع المحافظة على الحالات الملائمة".

وبعد التأكد من أن هذه الخطوة لم تغفل شيئاً من الخطوات الأساسية التي تقوم عليها المنهج الديكارتي، لذلك يؤكد ديكارت على ضرورة تكرار فحص الخطوات، وذلك لأن هذا الفحص سيجعل الحقيقة تتضح أمامنا، وفي هذا الصدد يرى أحد الباحثين:" يطلب منا ديكارت في هذه القاعدة أن نراجع عدة مرات كل قضية يقينية في برهاننا، ونستمر في هذه المراجعة حتى يصبح البرهان وكأنه بصيرة واحدة، وينعدم التخاوف بين الاستنباط والحدس، ويمثل ديكارت لذلك بمسألة من علم الضوء استخدم في حلها قاعدة الأحصاء"[19]

---

[16] – المصدر نفسه.

[17] – رينيه ديكارت. المقال في المنهج، القسم الثاني. ص96.

[18] – المصدر نفسه.

[19] – الطاهر عزيز. مناهج فلسفية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1990، ص92.

لقد تبين إذن أن قواعد المنهج الديكارتي هي قواعد تخص الإدراك العقلي لديه، إذ إن ديكارت لا يريد أن يقصر المعرفة على معرفة نسبية، بل إنه يريد أن يذهب إلى القول بأن الإدراك العقلي قادر على الوصول إلى المعرفة الكونية، التي هي معرفة ثابتة ومطلقة وواضحة في الآن نفسه. وبالتالي فقد شكل المنهج عند ديكارت مسألة مهمة في دراسة الفرق بين الإدراك الحسي والإدراك العقلي. وقد انطلق من المنهج الاستنتاجي العقلي ورفض المنهج التجريبي. أما أساس هذا المنهج فهو الكوجيتو الشهير الذي يقول: (أنا أفكر إذن أنا موجود). ويعبّر هذا الكوجتيو عن مسألة أساسية، وهي أن الوجود هو حالة تفكير دائمة وبمجرد أن ينقطع التفكير فإننا نكف عن الوجود، وعند هذا الحد يكون ديكارت قد أكد على مسألة مهمة وهي أن التفكير فعل إنساني، ولكي يكون تفكيراً سليماً فيجب أن ينطلق من الشك، الشك في كل المعارف التي تلقاها البشر، وبالنسبة إلى ديكارت، فإننا يمكن أن نشك في كل شيء باستثناء أمر واحد وهو التفكير الذي لا يمكن أن نشك في وجوده. وفي هذا السياق يرى أحد الباحثين أن" المنهج عند ديكارت يبين القواعد العملية التي يجب اتباعها لإقامة العلم، ولا يحلل أفعال العقل ولا يدل على صدقها وموطن الخطا فيها كما يبين المنطق، فإن هذا التحليل عديم الفائدة في رأي ديكارت وبيكون وأضرابهما، وإن المنطق الطبيعي يغني عن المنطق الصناعي، وبينما المنطق علم وفن معاً، نجد المنج عند هؤلاء الفلاسفة فناً فحسب، وإن يكن منطوياً على نظرية في العقل والعلم كما سنرى في عرض فلسفة ديكارت، فإن هذه النظرية متمشية على هذا المنهج ومؤسسة له"[20].

قبل أن نتابع ديكارت في سيره نحو الإدراك العقلي، نريد أن نلفت الانتباه إلى شكه المطلق ينطوي على تصورية مطلقة هي روح المذهب ونقطته المركزية. فهنا ننتقل إلى مفهوم التصور عند ديكارت، إننا لا نستطيع أن نفهم علاقة التصور بالإدراك العقلي في منهجه إذا لم نستطيع أن نفهم ماذا يقصد ديكارت بالتصور. صحيح أن ديكارت يرى أن التصور تصور بحت لا إدراك شيء واقعي والفكر عنده لا يدرك إدراكاً مباشراً غير نفسه، وإلا لما أمكن الشك في موضوعاته. ولكن السؤال الحاسم في مفهوم ديكارت حول التصور هو، هل يسلم ديكارت في مرحلته الأولى أن يقبل شيئاً من دون الفكر؟ فيؤمن بتفكيره في السماء والأرض ويشك في وجودهما؟ وقد لاحظ أحد الباحثين ذلك بالقول:" قد أنكر بعضهم على ديكارت اتخاذه عبارة أنا أفكر وإذن أنا موجود مبدأ أول وقال إن هذه العبارة قياس إضماري حذفت منه المقدمة الكبرى وهي ما يفكر فهو موجود، وأن الأولى وضع هذه المقدمة موضع المبدأ الأول. فرد ديكارت أن هذه العبارة ليست قياساً، ولكنها حدس يدرك وجود المفكر في الفكر"[21].

وبالوصول إلى هذه النقطة يبدو لنا أن الفكر قوة مدركة للوجود، أي اذا اعتبرناه إدراك أفكار أو ظواهر وبالتالي تشرح لنا بشكل دقيق طبيعة علة الأفكار التي تمثلها الأشياء الخارجية. وأما كيف يشرحها فهو أن العلة نفسها تصدر الأفكار من أشياء شبيهة بها؟ فهذا الشرح يبدو بالنسبة لنا جانباً مهماً من جوانب فهم الإدراك العقلي، وفي هذا الصدد يكتب أحد الباحثين:" إذا سألنا ديكارت عن علة الأفكار التي نمثلها، أجاب قائلاً: قد أكون أنا تلك العلة، إذ ليس من الضروري أن تصدر الأفكار عن أشياء شبيهة بها، بل قد تصدر عن علة حاصلة بالذات على الكمال الممثل فيها، أو عن علة حاصلة عليه على نحو أسمى، وأنا حاصل على الفكر بالذات، فأستطيع أن أؤلف فكرة الملاك، وأنا حاصل

[20] – **يوسف كرم. تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت، ص65.**

[21] – **المرجع نفسه، ص71.**

على حقائق الأجسام على نحو أسمى لأن الجسم دون الفكر، فأستطيع أن أؤلف أفكار الأجسام. ومع ذلك سيطلب ديكارت أصولاً خارجية لأفكار الأجسام يجعلها موضوع العلم الطبيعي، وسيتخذ سبيلاً إلى ذلك وجود الله وصدقه"[22].

وطالما أن وجود الأشياء الخارجية، وكذلك الظواهر غير متوقف على الكوجيتو الديكارتي، فإن مقولة أنا أفكر إذن أنا موجود تدل فقط على ماهية الشيء المفكر بهذا الشكل يكون الكوجيتو مقتصراً على حضورنا لذاتنا طالما إننا نفكر ويبدو إن اليقين الوحيد عند ديكارت هو ذلك المتعلق بالأنا المفكرة، بحيث إن التفكير هو ماهية الأنا وإن الفكر وحده لا يمكن إن ينفصل عن هذه الأنا وبمجرد توقف الأنا عن التفكير فإنها تكون قد كفت عن الوجود.

أما البرهان عن الأنا المفكرة فهو الأنا نفسها وبهذا المعنى تكون الأنا موجودة وجوداً واقعياً، وهي ليست صورة مجردة عن الفكرة وتالياً فإن الفكر يصل إلى الوجود الفعلي انطلاقاً من وجود الأنا الخاص بها. وبالتالي يمكن القول أن الخطأ ناجم عن الهوة الفاصلة بين الإدراك من جهة وعدم القدرة على الاختيار من جهة أخرى، وقد أكد ديكارت على محدودية الإدراك وقد كتب العبارة التالية" إني كائن مدرك لأمور قليلة وجاهل لأمور كثيرة"[23].

إن وعي نقص القدرة على الإدراك جعل ديكارت يبحث في ماهية الخطأ، فإذا لم يكن الإدراك مكتملاً. فإن القدرة على الاختيار تكون ناقصة، وهذا النقص الذي يعتري الإدراك والاختيار هو الذي يؤدي إلى خلط بين الأمور ويلقي بنا بعيداً عن الوضوح واليقين اللذين هما عماد الحقيقة، وكلما أصبح الإدراك أكثر وضوحاً تصبح قدرتنا على الاختيار أكبر.

وبالعودة إلى مفهوم الإدراك العقلي عند ديكارت، الذي يكون قادراً على إدراك الحقيقة بواسطة العقل، فإننا نجد إن هذا الإدراك لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال فهم المنهج الديكارتي؛ فاتباع الخطوات في النهاية هو هدف الإدراك العقلي، وكل إدراك عقلي لابد له من إدراك الحقيقة ، وهذا ما يجعل الإدراك العقلي قائم على الحقيقة، حيث يرى أحد الباحثين ذلك بالقول:" أجل، إذا عثرت على فكرة تفوق حقيقتها الموضوعية كل ما في بحيث لا أكون علة هذه الفكرة، علمت أني لست وحيداً في العالم. والواقع أني أجد بين أفكاري فكرة الله، أعني فكرة موجود كامل لا متناه"[24].

وهذا الفهم لطبيعة المنهج الديكارتي وقواعد التي تخص الإدراك العقلي لديه، نصل إلى أن ديكارت لا يريد أن يؤكد إلى أن هذا المنهج يصل فقط للمعرفة النسبية. بل يذهب إلى القول بأن الإدراك العقلي قادر على الوصول إلى المعرفة الكونية هذه المعرفة ثابتة ومطلقة وواضحة أيضاً.

وقدرة الوصول إلى المنهج العقلي يتعلق بقدرتنا على الالتزام بقواعد المنهج الديكارتي، الذي نجده دوما ينطلق من الشك ومن توسيع دائرة المعرفة من المعرفة الجزئية إلى المعرفة الكلية. وهي مايشير إليها ديكارت بالمعرفة الكونية، وهذا يعني أن ديكارت كان يبحث عن مضمون كلي للعلم وللقانون العلمي وأن تتخلص المناهج القديمة من اعتبار المعرفة الجزئية معرفة كافية، لأن الجزئي والمعرفة المرتبطة به قد تتغير. وهو ما لا يسعى إليه ديكارت، بل على العكس من ذلك، فإن ديكارت في منهجه العقلي واعتماده على الإدراك العقلي أراد أن يحرر المعرفة أولاً من الأفق الضيق، والانطلاق نحو معرفة كلية يمكن من خلالها الوصول إلى القانون الكلي العام. وبالتالي الوصول إلى التعميم الذي هو ضروري في ميادين العلم كافة، ولذلك فإن ديكارت لا يثق بأية معرفة لا تساعدنا على إطلاق التعميم أي جعل المعرفة العلمية مطلقة وعامة تشمل جميع الميادين العلمية، لذا سنجد أن صدى الفلسفة الديكارتية وخاصة في

---

[22] – **يوسف كرم. تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت، ص71.**

[23] – **المرجع نفسه، ص72**

[24] – **يوسف كرم. تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت، ص73.**

عصره. لذا سنلاحظ فيما بعد مدى الأثر الذي تركه ديكارت فاستفاقت عليه العقول، كذلك سنجد أن قيمة المنهج الديكارتي تظهر في إبداع ديكارت منهج فلسفي جديد، ومغاير تماما لما تم تأسيسه من قبل، ومن أهم المتأثرين بفلسفة ديكارت كان الفيلسوف الهولندي اسبينوزا، الذي يرى في كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة،" سبينوزا هو اديكارتي الوحيد، الذي استطاع أن يطبق المنهج الديكارتي تطبيقاً جذرياً في المجالات التي استبعدها ديكارت من منهجه"[25]

ومما سبق يمكن القول إن تركيز ديكارت على البعد العقلي في المعرفة، أي البعد التجريدي الذي يتعالى عن الحس. يؤكد أن ديكارت يرفض أن تكون المعرفة حصيلة الحس والتجربة، بل يرى بأن العقل فيه أفكار ذاتية، لم تأتي من الخارج، بل هي من ذاتياته. وبالتالي بكون الصورة العقلية شأن من شؤون النفس (العقل)، فالشأن بمنزلة الذاتي للمتشئن إذا صح التعبير. وبالتالي يبقى للجانب الحسي الدور الاعدادي لتحقق المعرفة، ولا يخفى بأن هذا الدور لا يرقى الى الدور الذي أناطه أصحاب المذهب الحسي للحس.

الاستنتاجات والتوصيات

لقد حاولنا في هذا البحث الغوص في القضايا والمشكلات المتعلقة بطبيعة المعرفة الديكارتية من حيث موقع المعرفة الحسية لدية، ذلك عندما أشرنا إلى نظرته حول طبيعة نظرية الإدراك الحسي وما ترتب عليها من اشكالات معرفية لم يوافق عليها ديكارت واخرى اعتبرها ضرورية للوصول إلى الإدراك العقلي باعتبار أن ديكارت هو فيلسوف العقل وأنه لايمكن الوصول إلى الحقيقة المطلقة إلا عبر المعرفة العقلية، مما جعل ديكارت يهتم بالعقل وامكانياته لتحصيل الحقيقة متبعة بذلك خطوات منهجية عقلية.

المصادر والمراجع:

1. رينيه ديكارت. مقال في المنهج، ت: محمود محمد الخضيري، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968.
2. رينيه ديكارت.تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ت: كمال الحاج، منشورات دويرات، بيروت، ط4، 1988
3. باروخ سبينوزا. رسالة في اللاهوت والسياسية، ت: حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، 2005.
4. برتراندرسل. مشاكل الفلسفة. ت: محمد عماد الدين إسماعيل وعطية هنا، الطبعة الأولى، 1947.
5. الطاهر عزيز. مناهج فلسفية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 1990.
6. محسن صخري. فوكو قارئا لديكارت، مركز الانماء الحضاري، حلب، ط1، 1997..
7. مهدي فضل الله، فلسفة ديكارت ومنهجه، دراسة تحليلية ونقدية، دار الطليعة، بيروت، ط3، 1996.
8. نظيوسف كرم. تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، لبنان، د.ت.

[25] – **باروخ سبينوزا. رسالة في اللاهوت والسياسة، ت: حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، 2005، ص9.**